المشروع الأنثروبولوجي الكولونيالي ودور المؤسسة الثقافية الجزائرية في إزاحته

The colonial anthropological system and the role of the Algerian cultural institution in exposing it

د. سليمة عيفاوي

جامعة محمد البشير الإبراهيمي– برج بوعريريج (الجزائر)

Salima.aifaoui@univ-bba.dz

تاريخ الإرسال: 2022/12/25 **تاريخ القبول: 2023/01/30**

ملخص:

من أهم ادّعاءات الخطاب الأنثروبولوجي الفرنسي اعتماد الموضوعية سبيلا لمعرفة ثقافة الآخر المختلف من خلال الاستناد إلى الأنثروبولوجيا والعلوم المجاورة لها باعتبارها إطارات معرفية لها مقوّماتها وقوانينها. ولما كان الهدف يتجاوز المعرفة في حدّ ذاتها إلى استغلالها من أجل الاستيلاء الهيمنة، كانت الكولونيالية هي المقوّم الأساسي للدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر، مستفيدة في ذلك من المناخ المعرفي الذي تميّز حينها بالتأصيل المعرفي للأنثروبولوجيا والاستفادة القصوى من كلّ الوسائل المعرفية والتقنية المتاحة. أمّا صاحب الأرض فقد كان منشغلا بإخراج الدخيل الفرنسي من أرضه أكثر من الاهتمام بتوثيق ثقافته الشعبية عدا تلك الإشارات التي توحي بالممارسة الأنثروبولوجية في كتابات بعض أعلام الحركة الوطنية الجزائرية.

في غضون ذلك؛ ستحاول هذه الورقة البحثية رصد جهود المؤسسة الثقافية الجزائرية في مجال الاهتمام بالثقافة الشعبية قبل وبعد الاستعمار بعد تتبّع مسار المنظومة الأنثروبولوجية الاستعمارية في محاولتها اغتصاب مقوّمات الهوية الوطنية عن طريق تقويض الثقافة الشعبية الجزائرية بمختلف تمثّلاتها.

الكلمات المفتاحية: المؤسسة الثقافية، الأنثروبولوجيا، المشروع الكولونيالي، الثقافة الجزائرية المقاومة الثقافية.

Abstract :

The most prominent claims of anthropological discourse is the adoption of objectivity as a way to know the different culture of another person, by relying on Anthropology.

Since the purpose goes beyond knowledge in itself to exploiting it in order to seize hegemony, colonialism was the main component of anthropological studies in Algeria, benefiting from the epistemological climate that was characterized at that time by the cognitive rooting of anthropology and the maximum use of all knowledge and technical means. As for the owner of the land, he was preoccupied with expelling the colonialists from his country .was more concerned with getting the French intruder out of his land than with documenting his popular culture, except for those references that suggest anthropological practice in the writings of some flags of the Algerian national movement.

Meanwhile, this intervention will try to monitor the efforts of the Algerian cultural institution in the field of interest in popular culture before and after colonization, after following the path of the colonial anthropological system in its attempt to usurp the elements of national identity.

Keywords**:** National culture; postcolonial; anthropological-colonial; cultural resistance; cultural colonization.

I. من تجليات المشروع الكولونيالي في الدراسات الأنثروبولوجية الفرنسية:

تعود بوادر الكولونيالية إلى جهود الدارسين الذين أبدوا اهتماما ولعا بثقافات وحضارات الشرق الأدنى تحت غطاءات معرفية حدّد هدفها بالمعرفة العليمة للشعوب كالأنثروبولوجيا والإثنولوجيا والأثنوغرافيا. تعرف الأنثروبولوجيا (anthropologie) بوجه عام "بأنّها العلم الذي يدرس الإنسان من حيث هو كائن عضوي حيّ، يعيش في مجتمع تسوده نظم وأنساق اجتماعية في ظل ثقافة معيّنة (...) وهو أيضا العلم الذي يدرس الحياة البدائية، والحياة الحديثة المعاصرة، ويحاول التنبؤ بمستقبل الإنسان معتمدا على تطوّره عبر التاريخ الإنساني الطويل"كما تعرف بصورة مختصرة وشاملة بأنّها "علم دراسة الإنسان طبيعيا واجتماعيا وحضاريا" لذا نجد لها فروعا واتجاهات عدّة؛ كالأنثروبولوجيا الطبيعية

الأنثروبولوجيا الثقافية، الأنثروبولوجيا الاجتماعية. أدرك المستعمر جيّدا أهمية هذا العلم فكان أوّل غطاء معرفي توسّله لأجل إعادة تشكيل بناء ثقافة المجتمع الجزائري، فمرّ عبر هم مراحل العمل الأنثروبولوجي المتمثّلة أساسا في[1]:

– **المعاينة بالمشاركة:** تستلزم تحضيرا نفسيا وحالة ذهنية من شأنها أن تمكّن الباحث المعاين من تناسي ثقافته الخاصة ومراجعه، وتجعله يتحاشى أيّ شكل من أشكال التعصب أو أيّة أحكام مسبقة، فإذا توفرت فيه هذه المقومات عليه أن يلتزم بالعيش بين الجماعة.

– **الإقامة:** لقد نوّهت الأنثروبولوجيا من خلال أبرز روادها ((مالينوفسكي)) بفائدة تقطّع الإقامة وإيجابية الفواصل الزمنية، لأنّ هذا يمكّن من إعادة قراءة الملاحظات وإعادة صياغة المشكلات بالاستعانة بقراءات جديدة تدور حول أعمال من الطبيعة نفسها.

– **تعلّم اللغة:** يستلزم الاستقصاء الأنثروبولوجي فهما يكاد يكون تامّا باللغة، إذا شاء أن يقدّم بحثا ذا موضوعية ومصداقية.

– **جمع المعلومات:** أثناء المعاينة بالمشاركة كثيرا ما يقع تحت عين الباحث معطيات ينبغي أن يسجلها منذ البداية، فيعمد إلى تسجيل المورفولوجيا المجتمعية، وتصميم القرية، وتوزّع السكان فيها، وترتيب المساكن والمواضع العائدة لكلّ عائلة، ثم يعمد إلى فرز سكان القرية وتعيين أبنائها حسب العائلات الكبرى، وهنا يفضّل وضع ثبت للمصطلحات القرابية وجردة بالمعطيات الاقتصادية كالرزنامات الزراعية وتوزيع الأعمال الرجالية والنسائية على امتداد العام، وتوزيع الحقول المزروعة.كما بوسعه أن يدوّن بعض السير الذاتية وأخبار العارفين بحكم أنّها تساعد الباحث على اكتشاف أوجه التنظيم المجتمعي والعائلي والاقتصادي.

لقد مرّ الأنثروبولوجي الفرنسي بخطوات العمل الأنثروبولوجي لكنّه تحاشى احترام مقتضيات وشروط البحث الأنثروبولوجي التي تقتضي الموضوعية والمعرفة العلمية بالمجتمعات وأنّى له أن يلتزم هذه الشروط والمهمة أنيطت للعسكرين أكثر من الأكاديميين.

خرج العسكريون الفرنسيون من الميدان بوثائق إثنوغرافية شكّلت معطيات هامة ساعدتهم في قراءة الإنسان الجزائري في إطار منظومته الثقافية؛ فكرا، معتقدا، وممارسة

بعدما كانت لا تعرف عنه شيئا إلا معلومات قليلة وجدتها في "تقريرين رسميين كانا يمثلان أهم ما يمكن معرفته عن الجزائر"[2]، صارت بعد عقد من الزمن وفي فترة عشرين عاما (1847–1867) تملك معطيات تمّ جمعها في قرابة أربعين مجلدا[3].

اهتمّت الدراسات الأنثروبولوجية الفرنسية بالجزائر أرضا وإنسانا، وكان الاهتمام شاملا للتاريخي والجغرافي والإثني واللهجي والعقائدي والعرفي والثقافي، ما استدعى بالضرورة الاتصال بالأهالي والأعيان لاستقصاء المعلومات من قبل الضباط والإداريين الفرنسيين "من أمثال ((Berbrugger))، ((Feraud))، ((Mercier))، ((Robin))، و((Arnoud)) حتّى يكون البحث انتقائيا أكثر منه علميا، فكانت الكولونيالية أبرز ما ميّز هذه الدراسات، لذا سنحاول فيما يلي استظهار أهمّ المؤشرات الكولونيالية في الدراسات الأنثروبولوجية:

أ– إفراغ التاريخ الجزائري وتزييف الانتماء الديني:

عملت الكتابات التاريخية الفرنسية على إفراغ التاريخ الجزائري من محتواه الحقيقي والعمل على حشوه بمحتوى غريب عنه فاعتبرت الجزائر منطقة فراغ حضاري تفتقر إلى وجود شعب متماسك، إذ الجزائر في نظرهم ما هي إلا رقعة جغرافية تقطنها مجموعة من الأهالي تعاقبت على حكمها وتسيير شؤونها سلسة طويلة من الحكام الأجانب، تنتمي دينيا إلى المسيحية، فتمّ تخصيص جزء مهمّ من كتاباتهم التاريخية للفترة السابقة لفترة دخول الإسلام إلى الجزائر خاصة فترة العهد الروماني حتّى يرسّخوا في أذهان الجزائريين بأنّ أصولهم الدينية تعود إلى المسيحية، وهم أقرب إليها من الإسلام.

وممّا يثبت النية المبيّتة في تزييف الانتماء الديني للجزائر هو التنقيب عن الآثار المسيحية في كلّ ربوع الجزائر وإيهام الجزائريين بأنّ تواجدها على أرضهم هو دليل على أصلهم المسيحي، وفي مقابل ذلك، عمل المستعر على مصادرة الزوايا والمساجد وإخفاء أو إتلاف المخطوطات التي لها علاقة بتفسير القرآن والعقيدة والتصوّف والحكمة والآداب والتاريخ والطب والفلك كونها قيما حضارية تعكس الهوية الحقيقية للمجتمع الجزائري وتكشف زيف المستعمر الفرنسي.

كما تجدر الإشارة إلى أنّ الفرنسين عملوا على ترويج وهمهم بأنّهم احتّلوا الجزائر كي يطردوا منها الأتراك الذين أخلّوا بالأمن في حوض البحر الأبيض المتوسّط (...)، واطمأنوا لهذا الوهم الكبير، وفسّروا المقاومات الشعبية التي جابهتهم تفسيرات على مقاسهم، وقالوا أنها نابعة من تعصّب ديني يعكس ضعف الاستعداد الحضاري عند الشعب الجزائري، الذي هو في نظرهم شعب بلا تاريخ، بل هو مجموعة من الكيانات والقبائل المتنافرة التي لا تخضع إلا للقوي كالرومان والوندال والأتراك والفرنسيين.

ب– تعلّم اللهجات الجزائرية ودراستها:

أدرك المستعمر أهمية دراسة اللهجة في الكشف عن هوية المجتمع الجزائري، فانطلقت الدراسات العلمية للهجات الجزائرية في وقت مبكر حددها ((روني بسنى)) بسنة 1890[4] عمدت عبر منهج إثنوغرافي متكامل إلى وضع خرائط شاملة للقبائل الجزائرية منذ سنة (1844م) ومحاولة تعلّمها ودراستها منهم ((مارسيه)) الذي كان لديه باع مهم في البحوث المتعلقة باللهجات المختلفة للمجتمع الجزائري مثل دراسته لهجات تلمسان وسعيدة ((وهنري باسيه)) الذي اهتمّت دراسته ((البربري ولغته)) باللهجة القبائلية، و((كانتينو)) الذي قدّم دراسة عن اللغة البربرية في الأقاليم الجنوبية[5]. و((شارل فيرو)) الذي أتقن اللهجات الجزائرية وكان المترجم الرسمي لها في الهيئات الإدارية والعسكرية الفرنسية و((جيرمين تيون)) التي تعلمت اللهجة الأمازيغية في معهد اللغات الشرقية لتقدم عديد الدراسات الأنثروبولجية عن الأوراس.

ج– الاهتمام بعادات وتقاليد ومعتقدات المجتمع الجزائري:

اهتمّت الدراسات الثقافية الفرنسية بعادات المجتمع الجزائري وتقاليده حتّى تقترب منه وتكسب ودّه وثقته، فعبّر ((فيرو)) وهو أحد أبرز الكولونياليين عن أهميتها قائلا: "إنّ سكان القبائل الشرقية – ويقصد بهم منطقة جيجل– لهم عادات وتقاليد ومن المهم جدا لنا دراستها ومعرفتها جيدا"[6]. أشارت جلّ نصوصه إلى الأعراف المتعلقة بالحياة الاجتماعية وبعض المخالفات المتعلقة بالخيانة وسيادة العرف على الدين حتى يزيح الدور الذي لعبه الدين الإسلامي في حياة المجتمع الجزائري.

د– الاهتمام بتاريخ الأولياء الصالحين والترويج لقصصهم:

فازت الطرق الصوفية والممارسات الشعائرية للجماعات الصوفية بالنصيب الأوفر من اهتمام العسكرين الفرنسيين كالضابط ((دونوفو)) (E.Deneveux) الذي نشر كتابا عن أعضاء الطريقة الدينية، والكولونيل ((ترومیلیه)) (Trumulet) الذي ألّف كتابين عن الأولياء الصالحين بالقطر الجزائري وأضرحتهم ومعتقداتهم وكراماتهم، ونشرت المجلة الإفريقية بحوثا في نفس الموضوع لـ((ألكسنندر جولي)) (A.Joly)[7]، و((فيرو)) الذي قام بعملية جرد لمعظم أولياء الشرق الجزائري. مردّ هذا الاهتمام انتشار قصص الأولياء في الأوساط الجزائرية خاصة في القرن التاسع عشر وبداية هذا القرن، وتأثيرها القوي في مختلف الأوساط الشعبية، حيث جنّد الباحثون العسكريون أقلامهم للكشف عن هذه الجماعات الدينية وطرق تنظيمها وممارساتها ومعتقداتها والعمل على ترويج فكرة أنّ الاستعمار (قضاء وقدر) والاعتناء بالطقوس الملازمة لزيارة الأضرحة حتّى تنجح في مواصلة سياسية الطمس والتجهيل التي تبنّتها منذ بداية الاحتلال.

هـ– اختراق الفضاء القبلي الجزائري:

ركّزت هذه الدراسات على القبلية والصراعات بين الصفوف مبرزة أنّ الكيانات القبلية في تلك الفترة لا تحقّق الالتحام الضروري للدفاع عن الذات إلا عند مجابهة خطر خارجي[8] أبرز من تمثّل هذا الهدف الضابط ((شارل فيرو)) الذي كان من العسكرين الذين استغلوّا القلم أكثر من البندقية والفكر أكثر من الحرب، فكانت نتائج عمله أخطر على الشعب الجزائري من نتائج زملائه العسكرين، قدّم ((فيرو)) دراسات هامّة عن قبائل الشرق الجزائري، كما خصّص اهتماما ملفتا لقبيلة ((ولاد نور)) التي أقام بين أهلها مدة خمسة أشهر استطاع من خلالها جمع كلّ الروايات الشفهية حول أصل القبيلة ومختلف الفرق المقيمة بها، واصفا أحداث الصراعات القبلية، فذكر النزاع الذي حصل قديما بين أولاد عبد النور وأولاد سعيد بن سلامة عند انتجاع أولاد عبر النور شتاء بالحضنة بمنطقة جزار[9].

فكان أخطر وتر لعبته الدراسات الأنثروبولوجية ذاك المتعلّق بمحاولة خلق كيانات متعدّدة في المجتمع الجزائري عن طريق بثّ النزعة القبلية فيها بإعلاء شأن ثقافة على

حساب أخرى، وتفضيل عرق على آخر، "فمن يرجع لهذه الأبحاث لا يجد شعبا متجانسا، إنّما يجد خليطا من العناصر العرقية المختلفة التي تتنافر في أساليب حياتها وفي ثقافتها، فظهرت دراسات عن بربر القبائل، ودراسات عن بربر الشاوية، ودراسات عن بربر الطوارق كلّ عنصر عرقي على حدة، وكأنّه يمثّل مجموعة قومية مستقلة"[10].

يبدو جليّا كيف أنّ هذا النوع من الدراسات ما هو إلا مقارنات انتقائية انحرفت تماما عن المسار العلمي للأنثروبولوجيا الذي يلحّ على احترام اختلاف الثقافات وعدم استغلال هذا التنوّع بأيّ شكل من الأشكال لأجل تحقيق أغراض التفرقة أو الهيمنة.

II. المؤسسة الثقافية الجزائرية ودورها في صيانة الثقافة الشعبية:

II. 1– في العهد الكولنيالي:

في سياق هذا الاهتمام بالثقافة الشعبية الجزائرية من قبل المؤسسة الكولونيالية الفرنسية كانت هناك حركة وطنية من قبل علماء جزائريين سخّروا جهودهم للتعليم والتأليف شكلّت نتاجاتها الوجه الرسمي للمؤسسة الثقافية الجزائرية في نهاية العهد التركي ومستهل العهد الاستعماري. من بين النتاجات التي يدخل اهتمامها ضمن المجال **الأنثروبولوجي** ما قدّمه كلّ من:

أ– عبد الرزاق بن حمادوش:

اعتبره ((أبو القاسم سعد الله)) نموذجا بارزا للمثقفين الذين اعتنوا بالتقاليد الشعبية في مجال الطّب الشعبي في فترة ما قبل الاستعمار، ونظرا لتأثير كتابه ((كشف الرموز)) في الأوساط الجزائرية في فترة ما بعد الاستعمار، يمكن ضمّه إلى جهود المؤسسة الثقافية في صيانة الثقافة الشعبية: "أنفق الرجل جزءا من حياته في تصنيف هذا الكتاب الذي ظلّ متداولا في مختلف مدن المغرب العربي طيلة القرن التاسع عشر والنّصف الأوّل من القرن العشرين"[11].يضمّ الكتاب حوالي ألف مادة تشتمل على أسماء الأمراض والأدوية المعروفة في الجزائر حينها، مع إيراد ما يقابلها في بعض اللهجات المحلية العربية، وكذلك اللغات الأوروبية، ترجمه ((لوسيان لكريك)) إلى اللغة الفرنسية وبرّر ترجمته بأهمية موضوعه في التعرّف

على عادات التداوي عند السكان، ومثار الإعجاب به يكمن في اعتماده طريقة واضحة في الوصف، فبعد المدخل أي النقل على ابن سينا والترتيب الأبجدي، يأخذ في تعريف الدواء ووصفه وأنواع الأسماء الأخرى التي تطلق عليه في مختلف البقاع وذكر خصائصه وفوائده العامة والخاصة، وكيفية استعماله، والكمية الضرورية منه، كما يذكر فيه الأمراض التي تستعمل لهذا الدواء[12].

ب– حمدان بن عثمان خوجة:

صاحب كتاب ((المرآة)) الذي ظهر باللغة الفرنسية سنة (1833م) ولم يترجم إلى العربية إلا بعد الاستقلال، اعتبره الباحث ((عبد الحميد بورايو)) مرافعة دفاع عن أخلاق وعادات المسلمين الجزائريين اتجاه الغزاة الفرنسيين الذين دخلوا الجزائر ليقوّضوا صرح مجتمعها ويعتدوا على مقوّماتها الثقافية، فرأى ((حمدان بن عثمان خوجة)) أنّ العادات والتقاليد وأنماط سلوك المجتمع الجزائري هي رصيد حضاري على المحتل احترامه: "على كلّ شعب بصفة خاصة ألّا يعتقد أنّه يملك أحسن التقاليد وأحسن القوانين؟ فليس ثمة (..) أكثر سخرية من مثل تلك الادّعاءات، وعلى من له تلك الأفكار أن يراجع نفسه" ويردف قائلا: "ولسوء الحظ فإنّ مثل هذه الاختلافات في العادات والتقاليد هو الذي يكون سبب احتقار الأمم بعضها لبعض، وهو أمر ما كان يجب له أن يحدث لأنّ الحضارة لا تتمثّل في كيفية الجلوس على مقعد على أريكة، أو في اللباس بهذه الطريقة أو تلك، ذلك أن بعض الناس أنيقون، يتردّدون على الصالونات، لكنهم يشكّلون في بعض الأحيان خطرا على المجتمع(..) وبكلّ تأكيد، فليست هذه الحضارة التي نريد إدخالها إلى إفريقيا"[13].

ت– محمد بن شنب:

صاحب ((أمثال الجزائر والمغرب العربية، مجموعة مترجمة ومشروحة)) أقدم مصنّف جزائري للأمثال الشعبية الجزائرية؛ عمد فيه إلى مقارنة الأمثال التي جمعها بما جمعها المستشرقون الفرنسيون قبله أمثال ((ماكويل)) (Machue) و((دوماس)) (Daums) وبما ورد في أمّات الكتب التراثية خاصّة منها كتب الأمثال، وكذلك كتب الأمثال التي ألّفها معاصرون له من المؤلفين العرب في مصر وسوريا والجزيرة العربية في القرن التاسع عشر

ومستهل القرن العشرين[14]. سجّل في مقدمته بعض الملاحظات المتعلقة بأداء الأمثال الشعبية الجزائرية فيقول: "كثير منها يتشكّل في ثلاث كلمات فقط أو أربعة، وهي كافية لتجعلها مفهومة، وتكون في أغلبها مقفاّة في نهايتها، تقترب لغة الأمثال كثيرا من اللغة الفصيحة، وكثيرا ما تسمع أميّا يذكر مثلا بعربية خالصة"[15].

وجّه ((محمّد بن شنب)) في هذه المقدمة النّقد إلى الأنثروبولوجيين الفرنسيين الذين أساءوا فهم المواد الثقافية الجزائرية، فأطلقوا عليها أحكاما مرتجلة تنتقص من قيمتها. فيردّ على ((شربينو)) الذي ادّعى أنّ الأمثال التي يستخدمها العرب ما هي سوى رصف لعبارات نمطية مكرّرة ومحفوظة على ظهر قلب يستدعيها الظرف ولا علاقة حقيقة لها بالمقام، يرد قائلا: "إنّه بالاستعانة بمثل ما يتمّ إسكات ثرثار، وإنعاش محادثة، والتوليف بين القلوب، واجتناب الخطب الطويلة، وتوبيخ الضال، وتفنيد الحجة، وإصلاح الخطأ والاستجابة لدعوة. لذا يردف قائلا: لا يجب أن نصدّق ما ذكره ((شربينو)) بأنّ المحادثة عند العرب ما هي سوى تجميع لعبارات نمطية تلائم الظرف"[16]، تنبّه ((محمد بن شنب)) إذن إلى اللهجة التحقيرية ونظرة الاستعلاء التي ميّزت بعض الدراسات الفرنسية المنتمية إلى المشروع الكولونيالي.

ث– الشعر الشعبي:

مثّل الشعر الشعبي وثيقة ثقافية ذات حمولة تاريخية حيث نزع إلى التسجيل الدقيق للأحداث وتحديد المواقع وذكر جميع الملابسات المتعلّقة بالحوادث التاريخية، فلعب الشعر الجزائري في الفترة الاستعمارية "دور المؤرخ الذي كان يسجّل الوقائع بشيء من التفصيل كذكر أسماء الرجال الذين شاركوا فيها، والزمن الذي حدثت فيه"[17]. بل ما فتئ الشعر الشعبي يدعم جهود جمعية العلماء المسلمين في الحفاظ على مقوّمات الهوية الوطنية كالشاعر ((بوقطاية)) الذي يقول[18]:

تْكـلّم الفْحـل عربي ما يعرفش الذّل
راجـــل بطـــل أصله من الإبراهيمية
قال لهم علاش هذه هدرة ما تسواش

ماهمش أكباش هــده أمّــة عربيـة
دواهـا التعليم والدّين السمح القويم
باش تستقيـم تخرج من طور الجهلية

كما قدّم هذا الشاعر عرضا تقريريا عامّا عن الصراع الداخلي بين التوجهات السياسية الذي كاد يمزّق جهود الحركة الوطنية الإصلاحية(19):

تكلّم بن قانـــة قال أحنا ما شفنا هانة
هـــذوم اعدانا أنفــوهم للــــبرواقية
قـــال التيجـاني قـــال اسمعه يا إخواني
أنـــا بلســـاني وبـــاسم جميع الطرقية
نعطيــه الأمان بلــي رانـــا في الأمان
يسقـــط بينان(20) تحـــيا فرنسا الديغولية

نقل لنا الشاعر بعفوية دخول الجزائريين في صراعات سياسية لا تخدم إلا المستعمر وهو أمر أرهق الشعراء الجزائريين فجعلهم ينتشون فرحا بكلّ المبادرات التي تدعو إلى الوحدة الوطنية، وهو ما نجده في هذا المقطع للشاعر ((عبابسة محمد الأخضري)) بمناسبة عقد الحركة الوطنية مؤتمر سنة 1936م لدراسة الأوضاع السياسية والاجتماعية في الجزائر:

تفـرح مـزغنـــة بابنـاها وتفاخر ويزول عـناها
اللي صديق يكون معاها والحاسد يرجـع مقهور
تفـــرح مزغنّـــة وتعرّس المطـربـش والمتـــبرنس
والمتعـــمّم والمتفـــرنس صبحة جملة أولاد برور

لا شكّ أنّ هذا النزوع إلى التوثيق التاريخي للشعر الشعبي الجزائري له أهميته بالنسبة لمجتمع يعتمد أساسا على ثقافة شفوية تعرّضت تقاليد الكتابة فيه إلى الاضطراب والانقطاع بسبب ظروف الصدام الدامي والحروب وتحطيم المؤسسات الثقافية، ممّا جعل الشاعر الشعبي يتكفّل بدور المؤرّخ(21) الذي حملت قصائده تلك الروح الملحمية التي تعيد للشعر قيمته الجمالية والإنسانية.

III. الدراسات الثقافية الجزائرية ما بعد الكولونيالية ودورها في صيانة الثقافة الشعبية:

- **جهود الباحث (عبد الحميد بورايو):**

تعدّ جلّ كتابات الباحث ((عبد الحميد بورايو)) دراسات رائدة في مجال الاهتمام بالثقافة الشعبية الجزائرية جمعا وتدويا ودراسة سيما وهو الوطني الغيور على ثقافة بلاده التي عاث المستعمر فيها بالتزييف والتشويه، فعملت أبحاثة وكتبه سيما ((الأدب الشعبي الجزائري))، ((في الثقافة الشعبية الجزائرية))، ((القصة الشعبية في منطقة بسكرة)) على صيانة الثقافة الشعبية الجزائرية بعد محاولات المصادرة التي طالتها من قبل المشروع الكولونيالي.

لذا تميّزت أبحاثه بالطابع الوطني التوثيقي حيث لم يكتف في كتاباته المختلفة بالتأصيل لمواد الثقافة الشعبية الجزائرية ومن ضمنها الأدب الشعبي بمختلف أشكاله، بل سعيه كان واضحا في الرّد على المشروع الكولونيالي الفرنسي حيث لم يتوان في إفراد مساحات هامة من أبحاثه خصّصها لفضح أسباب عناية الدراسات الفرنسية العسكرية بالثقافة الشعبية الجزائرية بعد رصد تاريخ الاهتمام بها؛ ففي مدخل حديثه عن بدايات الاهتمام بالمواد الثقافية الشعبية في كتابه ((الأدب الشعبي الجزائري)) كشف الأسباب المبطنة وراء هذا الاهتمام قائلا: "إثر إنزال القوات العسكرية، كان لا بدّ للغازي أن يعمل على استكشاف الخصم ومعرفة من يقاتل، كانت إذن هناك حاجة لمعرفة سكان المراكز التي تمكّن احتلالها عسكريا معرفة تخدم استراتيجيته العسكرية، فبدأت تظهر الدراسات التي تتناول الحياة الشعبية في هذه المراكز، وكان يقوم بها العسكريون أنفسهم"[22].

ليوضّح أنّ الثقافة الشعبية هي الرصيد المعتمد في الاستكشاف العلمي للمجتمع الجزائري مستشهدا في ذلك بوثائق إثنوغرافية قام المستعمر بإنشائها، فتحدّث عن الهيئات العلمية التي قامت بالدراسات الأنثروبولوجية ذات الطابع الاستعماري، فذكر الجمعية الجغرافية والجمعية التاريخية التي أصدرتها المجلة الإفريقية وقامت بنشر عدد من الأبحاث حول الحياة الشعبية الجزائرية. كانت تعقد مؤتمرات علمية دورية بدأ انعقادها بمدينة الجزائر سنة 1935م، ثم انعقد مؤتمر ثاني بمدينة تلمسان سنة 1936، وثالث بقسنطينة سنة 1937 تناولت هذه الدوريات موضوعات التراث الشعبي الجزائري[23].

تفطّن الباحث ((بورايو)) أثناء معاينته لهذه الوثائق إلى دسائس المستعمر وهو يحاول استغلال التنوّع الثقافي والقبلي للمجتمع الجزائري في هزّ وحدة المجتمع الجزائري: "اتجهت السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر خاصة وفي شمال إفريقيا عامة إلى تمييز المناطق التي ما زال سكانها يستخدمون اللهجات البربرية في حياتهم اليومية، عن باقي المناطق التي أصبح سكانها يتكلّمون اللغة العربية الدارجة، وسعت إلى ترويج الفكرة البربرية ، والدعوة إلى خلق كيان بربري مفصول عن جسم الشعب الجزائري"[24] وكان من مفرزات هذه المخطط إعلان ما سمي بالظهير البربري عام 1914م.

أصدر ((بورايو)) هذا الحكم بعدما لاحظ توجّه الدراسات الأنثروبولوجية نحو التقسيمات الإثنية للمجتمع الجزائري عن طريق الاهتمام بالعناصر المميزة للعنصر البربري من خلال تراثه وثقافته الشعبية ، ورصد الاختلافات التي تميّز البربري الساكن الأصلي عن العربي الوافد مع الغزو الأجنبي للبلاد، موردا عديد المواقف التي استغلت اختلاف اللهجات والعادات والتقاليد بين مكونات المجتمع الجزائري في كسر وحدته، منها ما انتهى ((م.فابار)) و((م.دوماس)) في كتابهما عن الحكايات الشعبية في منطقة القبائل سنة 1847، إذ جاء في معرض مقارنتهما بين العنصرين العربي والقبائلي ما يلي: "العربي يحيط نفسه بالتمائم، يعلّقها في أعماق خيله وكلابه ليحميها من العين ومن الأمراض ومن الموت...يرى كلّ شيء آثارا للسحر، القبائلي لا يعتقد أبدا في عين الحسود، واعتقاده قليل في الأحجبة ...العرب مضيافون لكن ضيافتهم للمداراة والتباهي أكثر منها نابعة من القلب. عند القبائلي متواضعة"[25].

كما ألفت إلى خضوع هذه الدراسات لعوامل الصدفة والارتجال بعدما انتبه إلى ملاحظة سجّلها ((ك. ترومليه)) عن الأهالي وهو بصدد الحديث عن معتقداتهم الدينية: "ليس من السهل أبدا أن نجعل أحدا من الأهالي الجزائريين يتكلّم خاصة إذا كان الأمر يتعلّق بموضوع يتصل في جانب من جوانبه بدياناتهم وبمعتقداتهم وبأوليائهم، ...تبقى شفتاه مضمومتين بإحكام عند كلّ سؤال يمسّ موضوعا دينيا"، استنتج منها غياب الثقة بين الراوي والجامع ما يعني غياب شرط من الشروط الأولية التي يجب توافرها في عملية الجمع[26]... هذا عدا نظرة الاستعلاء التي رصدها وكانت طاغية على جلّ هذه الدراسات

في كلّ مراحل التواجد الفرنسي في الجزائر، فيوضّح قائلا: "حتى وإن أنيطت هذه الدراسات للجامعيين الذين تميّزوا عن غيرهم بالوعي إلاّ "أنّهم ظلوا ينظرون إلى مواد الثقافة الشعبية الجزائرية على أنّها متخلّفة لقوم متخلفين، يقول ((ألفرد بل)) (A.Bel): "هم مثل جميع البشر ذوي الذهنية البسيطة يعشقون الحكايات الخرافية والقصص الخيالية والأساطير الخارقة للعادة...إنّهم سذج لا أكثر ولا أقل، وهم اليوم مثلما كانوا قديما"[27].

ومن بين ما ميّز كتابات ((بورايو)) التعمّق في نظرة الأنثروبولوجي الفرنسي وهو يتحدّث عن أشكال التعبير الشعبي و أصولها، فردّ على ((ج.دسبرميه)) (j.Desparmet) الذي ربط ظهور المغازي في البلاد العربية إلى القرن 14: "منذ القرن الرابع عشر تقريبا وبالتحديد منذ أن بدأ الفتح العربي ينسحب أمام العودة الهجومية للمسيحية، أنتجت أرض الإسلام أدبا يحمل اسم المغازي (..) يتمثّل هدفه الوطني في حفظ ماء الوجه، والتذكير بالانتصارات الماضية لنسيان الذلّ المعاش في الحاضر، وقد أنبت الغزو الفرنسي لهذا الجذع القديم لرواية الفروسية الإسلامية فرعا جديدا"[28]، فردّ عليه قائلا: "إنّ ردّ دوافع انبعاثه من جديد في الجزائر إلى سبب نفسي (يتعلّق بالشعور الجمعي السلبي) يتمثّل فيما عاناه أهلنا من ذلّ الهزيمة أمام جحافل الغزو الاستعماري، تشوبه نظرة أحادية ذات طبيعة استعمارية تنكر على أدب الشعوب المستعمرة دوره الإيجابي في المقاومة الثقافية والمحافظة على الهوية واستشراف المستقبل وصنعه"[29].

كما استهجن موقف ((أ.هانوطو)) الذي ربط ظهور الشعر الشعبي في الجزائر بالتواجد الفرنسي: "اعتنى ((هانوطو)) بصفة خاصة بالشعر الذي يكشف موقف الجزائريين في منطقة القبائل من الاحتلال الفرنسي (...) واختياره مثل هذا النص يدلّ بصفة صريحة على الدوافع التي توجّه عناية الدارسين الفرنسيين في هذه الحقبة من تاريخ البحث الاستعماري، فبالنسبة لهم يبدأ الشعر الشعبي من هذه اللحظة، وليست هناك حاجة للاهتمام بأصوله أو بتاريخه السابق على الغزو الفرنسي[30].

هذا، ولم تمنع الكولونيالية التي ميّزت المشروع الأنثروبولوجي الفرنسي الباحث ((عبد الحميد بورايو)) من الاستفادة من دراسات بعض الفرنسيين التي بحثت الثقافة الشعبية

بموضوعية، فنجده ينقل طريقة ((ألكسندر جولي)) في تقسيم الشعر الجزائري (في مقال مطوّل استغرق أربعة أعداد ما بين سنتي (1900–1904) إلى القول، الزغوية، القطاعة ويعبّر عن إعجابه بها: "آثرنا أن نقدّم (..) أكثر النماذج التي أخضعها للبحث، نظرا لما يكتسبه هذا البحث من أهمية، إذ يبدو وكأنّه الوحيد الذي لم يخضع للعناية بالجانب السياسي والتاريخي.."[31] كما أشاد بما قالته ((Galand-Pernet)) حول نزوع الدراسات الفرنسية إلى المبالغة في الاعتماد على المقارنات بين النصوص التي تؤدي إلى تشتت العمل الإبداعي وإهمال قيمته الجمالية.

خاتمة:

- كلّ الدراسات الثقافية الفرنسية للمجتمع الجزائري كانت ستغدو على قدر عال من الأهمية في مسار البحث الأنثروبولوجي لولا مقاصدها غير البريئة من الإمبريالية التي تغلغلت في ثناياها، ومحاولاتها في إفراغ تاريخ الجزائر وتزييف الانتماء الديني لها واختراق فضائها القبلي، واستغلال ثقافتها وتراثها الشعبي لأغراض استعمارية شواهد على ذلك.
- مكّن المشروع الأنثروبولوجي الكولونيالي فرنسا من معرفة الجزائري أرضا وإنسانا غير أنّه لم يسمح لها بطمس هويته، ويعود الفضل في ذلك إلى المؤسسة الثقافية الجزائرية في الفترة الكولونيالية وما بعدها إذ كان لها الدور الفاعل في فضح الكولونيالية وتقويضها.
- ما قدّمه الوجه الرسمي للمؤسسة الثقافية الجزائرية من مرافعات للدفاع عن الثقافة الوطنية وإزاحة والمشروع الأنثروبولوجي الكولونيالي –على أهميته البالغة– لم يعد كافيا لمجابهة المنظومة الكولونيالية بامتداداتها العميقة في فكر ووعي الإنسان والمجتمع الجزائريين. لأنّ المسؤولية لا يمكن أن تحملها المؤسسة الثقافية فقط، وإنّما يجب أن تشارك فيها كلّ فئات المجتمع قاعدة ونخبة.
- اتّضح جليا أنّ البحوث الأنثروبولوجية هي المفتاح الذي قرأت من خلاله فرنسا الإنسان الجزائري فكرا، سلوكا، وانتماء ما يدعونا إلى إعادة النظر في موروثنا الثقافي واحترامه من قبل كلّ الهيئات وضرورة اعتماد البحث الأنثروبولوجي وسيلة يتعرّف من خلالها المجتمع على نفسه بالاستفادة من جهود أولئك الباحثين أصحاب الحسّ الوطني العالي أمثال ((عبد الحميد بورايو)) و((التلي بن الشيخ)) وغيرهم...

الهوامش والإحالات

(1)– ينظر جاك لومبار، مدخل إلى الإثنولوجيا، ترجمة حسن قبيسي، المركز الثقافي العربي، (ط1)، الدار البيضاء، المغرب، 1997، ص 174.

(2)– الأنثروبولوجيا والاستعمار، ص 8.

(3)– المرجع نفسه، ص 8.

(4)– سعاد حميدة، الاستشراق الفرنسي والثقافة الشعبية الجزائرية، مجلة دراسات إنسانية واجتماعية جامعة وهران2، مج11، عدد3، ص 214.

(5)– المرجع نفسه، ص 215.

(6)– فارس كعوان، الإثنوغرافيا الكولونيالية واختراق الفضاء القبلي للشرق الجزائري، مجلة المعيار، جامعة سطيف 2، مج 24، عدد 50، 2020، ص660.

(7)– عبد الحميد بورايو، الأدب الشعبي الجزائري، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007، ص 10.

(8)– فارس كعوان، المرجع السابق، ص 659.

(9)– المرجع نفسه، ص 660.

(10)– عبد الحميد بورايو، الأدب الشعبي الجزائري، ص 11

(11)– أبوالقاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 1998، ص446.

(12)– المرجع نفسه، ص 447، 448.

(13)– حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، (د.ت). ص 10.

(14)– عبد الحميد بورايو، في الثقافة الشعبية الجزائرية، (التاريخ والقضايا والتجليات)، فيسيرا للنشر الجزائر، 2011، ص 146.

(15)– محمد بن شنب، الأمثال العربية في الجزائر والمغرب، ج1، مقدمة الكتاب.

(16)– عبد الحميد بورايو، الأدب الشعبي الجزائري ص 26.

(17)– عبد الحميد بورايو، في الثقافة الشعبية الجزائرية، ص 160.

(18)– التلي بن شيخ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990، ص36

(19)– المرجع نفسه، ص 37.

(20)– بيتان: رئيس الجمهورية الفرنسية في فترة احتلال ألمانيا لفرنسا.

(21)– عبد الحميد بورايو، في الثقافة الشعبية الجزائرية، ص 161.

(22)– عبد الحميد بورايو، الأدب الشعبي الجزائري، ص 7.

(23)– ينظر المرجع نفسه، ص 8.

(24)– المرجع نفسه، ص 10.

(25)– المرجع نفسه، ص 14.

(26)– المرجع نفسه، ص 16.

(27)– المرجع نفسه، ص 17.

(28)– المرجع نفسه، ص 98.

(29)– المرجع نفسه، ص 98.

(30)– المرجع نفسه، ص 38.

(31)– المرجع نفسه، ص 45.